(**لن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ (١١١)**) .
[آل عمران : ١١١] .

(**لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً**) أي : لن يضروكم إلا ضرراً يسيراً بألسنتهم من سب وطعن .

- **قال ابن عطية** : قوله تعالى (لن يضروكم إلا أذى) معناه : لن يصيبكم منهم ضرر في الأبدان ولا في الأموال ، وإنما هو أذى بالألسنة .
- **قال القرطبي** : يعني كذبهم وتحريفهم وبُهْتَهم ؛ لا أنَّه تكون لهم الغَلَبَة .
- **وقال الرازي** : قوله تعالى (لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً) معناه : أنه ليس على المسلمين من كفار أهل الكتاب ضرر وإنما منتهى أمرهم أن يؤذوكم باللسان ، إما بالطعن في محمد وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، وإما بإظهار كلمة الكفر ، كقولهم (عُزَيْرٌ ابن الله) و(المسيح ابن الله) و (الله ثالث ثلاثة) وإما بتحريف نصوص التوراة والإنجيل ، وإما بإلقاء الشبه في الأسماع ، وإما بتخويف الضعفة من المسلمين .

قال القرطبي : فالآية وعد من الله لرسوله ﷺ وللمؤمنين ، أن أهل الكتاب لا يغلبونهم وأنهم منصورون عليهم لا ينالهم منهم اصطلام إلاَّ إيذاء بالبهت والتحريف ، وأما العاقبة فتكون للمؤمنين.

(**وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ**) وهذا وقع ، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم أنوفهم ، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ، كلهم أذلهم الله ، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن ، وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين . (ابن كثير)

- **قال القرطبي** : وفي هذه الآية معجزة للنبيّ ﷺ ؛ لأن من قاتله من اليهود ولاه دبره.
- **وقال أبو حيان** : هذه الجملة جاءت كالمؤكدة للجملة قبلها ، إذ تضمنت الإخبار أنهم لا تكون لهم غلبة ولا قهر ولا دولة على المؤمنين ، لأنّ حصول ذلك إنما يكون سببه صدق القتال والثبات فيه ، أو النصر المستمد من الله ، وكلاهما ليس لهم.

وأتى بلفظ الإدبار لا بلفظ الظهور ، لما في ذكر الإدبار من الإهانة دون ما في الظهور ، ولأن ذلك أبلغ في الانهزام والهرب.

ولذلك ورد في القرآن مستعملاً دون لفظ الظهور لقوله تعالى (سيهزم الجمع ويولون الدبر) (ومن يولهم يومئذ دبره) ثم لا ينصرون : هذا استئنافُ إخبار أنّهم لا ينصرون أبداً.

- **وقال الآلوسي** : وفي هذه الآية دلالة واضحة على نبوة نبينا ﷺ ولكونها من الإخبار بالغيب الذي وافقه الواقع لأن يهود بني قينقاع وبني قريظة والنضير ويهود خيبر حاربوا المسلمين ولم يثبتوا ولم ينالوا شيئاً منهم ولم تخفق لهم بعد ذلك راية ولم يستقم أمر ولم ينهضوا بجناح.

الفوائد :

١-أن أهل الكتاب لن يضروا المسلمين .

٢- أنه لو تقابل المسلمون وأهل الكتاب في قتال فالمنتصر هم المسلمون .

٣- تشجيع الله للمؤمنين وتثبيتهم .

(**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (١١٢)**) .

[آل عمران:١١٢] .

(**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا**) أي : لزمهم الذل والهوان أينما وجدوا .

- **قال ابن عاشور** : ومعنى ضرب الذلّة اتّصالها بهم وإحاطتها .
- اختلف في المراد بالذل هنا على أقوال :

الأول : أن المراد أن يحاربوا ويقتلوا وتغنم أموالهم وتسبى ذراريهم وتملك أراضيهم فهو كقوله تعالى : (اقتلوهم حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ) .

الثاني : أن هذه الذلة هي الجزية ، وذلك لأن ضرب الجزية عليهم يوجب الذلة والصغار .

والثالث : أن المراد من هذه الذلة أنك لا ترى فيهم ملكاً قاهراً ولا رئيساً معتبراً ، بل هم مستخفون في جميع البلاد ذليلون مهينون.

- ضربت عليهم الذلة لأنهم تكبروا ، فكل متكبر مصيره إلى الذل عقوبة له .
- أسباب الذل :

أولاً : استمراء المعاصي وتسويف التوبة:

قال تعالى (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) .

قال أبو حيان الأندلسي: لما ذكر تعالى حلول العقوبة بهم من ضرب الذلة والمسكنة والمباءة بالغضب، بين علة ذلك، فبدأ بأعظم الأسباب في ذلك، وهو كفرهم بآيات الله. ثم ثنى بما يتلو ذلك في العظم وهو قتل الأنبياء، ثم أعقب ذلك بما يكون من المعاصي، وما يتعدى من الظلم .

وقال الحسن البصري : أما والله لئن تدقدقت بهم الهماليج ووطئت الرحال أعقابهم، إن ذل المعاصي لفي قلوبهم، ولقد أبى الله أن يعصيه عبد إلا أذله .

ثانياً : الإشراك بالله تعالى والابتداع في الدين .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ) .

- **قال الطبري:** يقول تعالى ذكره: إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ إِلهًا سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ، بتعجيل الله لهم ذلك وذلة وهي الهوان، لعقوبة الله إياهم على كفرهم بربهم في الحياة الدنيا، في عاجل الدنيا قبل آجل الآخرة .
- **وقال الشاطبي:** كل من ابتدع في دين الله، فهو ذليل حقير بسبب بدعته، وإن ظهر لبادي الرأي عزه وجبروته، فهم في أنفسهم أذلاء ، وأيضا فإن الذلة الحاضرة بين أيدينا موجودة في غالب الأحوال، ألا ترى أحوال المبتدعة في زمان التابعين، وفيما بعد ذلك؟ حتى تلبسوا بالسلاطين، ولاذوا بأهل الدنيا، ومن لم يقدر على ذلك؛ استخفى ببدعته، وهرب بها عن مخالطة الجمهور، وعمل بأعمالها على التقية .

ثالثاً : محاربة الله ورسوله ومخالفة أمرهما .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ) .

- **قال الشوكاني:** أولئك في الأذلين أي: أولئك المحادون لله ورسوله، المتصفون بتلك الصفات المتقدمة، من جملة من أذلَّه الله

من الأمم السابقة واللاحقة؛ لأنهم لما حادوا الله ورسوله صاروا من الذُّل بهذا المكان. قال عطاء: يريد الذُّل في الدنيا والخزي في الآخرة .

رابعاً : الكِبْر والأنفة عن قبول الحق .

قال الرسول ﷺ (يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صورة الرجال، يغشاهم الذُّل من كل مكان) رواه الترمذي .

قال ابن القيم: من تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء، وتعليق القلب به خوفًا ورجاءً والتجاءً واستعانةً، فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته، وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان، ويذله غاية الذل، ويجعله تحت أقدام خلقه .

خامساً : اتباع الهوى .

قال تعالى (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) .

قال ابن تيمية : من قهره هواه ذل وهان وهلك وباد .

وقال ابن القيم : لكل عبد بداية ونهاية، فمن كانت بدايته اتباع الهوى كانت نهايته الذُّل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه، بل يصير له ذلك في نهايته عذابًا يعذب به في قلبه .

وقال ابن القيم أيضاً : تجد في المتبع لهواه ، من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها ما جعله الله سبحانه فيمن عصاه... وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته، والذُّل قرين معصيته .

سادساً : ترك الجهاد وحب الدنيا وكراهية الموت .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ (إذا ضنَّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، وتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، سلط الله عليهم ذلًا لا يرفعه حتى يراجعوا دينهم). رواه أبو داود

قال ابن رجب : من أعظم ما حصل به الذُّل من مخالفة أمر الرسول ﷺ ترك ما كان عليه من جهاد أعداء الله، فمن سلك سبيل الرسول ﷺ عز، ومن ترك الجهاد مع قدرته عليه ذل... ورأى النبي ﷺ سكة الحرث فقال (ما دخلت دار قوم إلا دخلها الذل) فمن ترك ما كان عليه النبي ﷺ من الجهاد مع قدرته واشتغل عنه بتحصيل الدنيا من وجوهها المباحة حصل له من الذل، فكيف إذا اشتغل عن الجهاد بجمع الدنيا من وجوهها المحرمة ؟

وقال الحسن البصري : قد رأينا أقوامًا آثروا عاجلتهم على عاقبتهم فذلوا وهلكوا وافتضحوا .

وقال : ما أعز أحد الدرهم إلا أذله الله .

سابعاً : البخل وشيوع الربا وأكل أموال الناس بالباطل .

قال رسول الله ﷺ (إذا ضنَّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، وتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، سلط الله عليهم ذلاً لا يرفعه حتى يراجعوا دينهم).

ثامناً : سؤال الناس والتطلع لما في أيديهم .

قال رسول الله ﷺ (لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يسأل الناس؛ أعطوه أو منعوه) ، وفي رواية لأحمد (فيكف الله بها وجهه) .

قال ابن حجر : فيه الحض على التعفف عن المسألة، والتنزه عنها، ولو امتهن المرء نفسه في طلب الرزق، وارتكب المشقة في ذلك، ولولا قبح المسألة في نظر الشرع لم يفضل ذلك عليها، وذلك لما يدخل على السائل من ذل السؤال، ومن ذل الرد إذا لم يعط .

وقال ابن مفلح : أولى الناس بحفظ المال، وتنمية اليسير منه، والقناعة بقليله توفيرًا لحفظ الدين والجاه، والسلامة من مننِ العوامِ الأراذلِ –العالمُ الذي فيه دين، وله أنفة من الذل .

(**إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ**) **قيل** : إن المراد بحبل من الله الإسلام ، **وقيل** : إن حبل الله هو الذمة والعهد الذين أعطاهما الله لليهود والنصارى إذا أعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

(**وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ**) قيل : هو العهد .

(**وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ**) أي : رجعوا مستوجبين للغضب الشديد من الله .

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ) أي : لزمتهم الفاقة والخشوع .

(**ذَلِكَ**) الذل والغضب عليهم والمسكنة .

(**بِ**) أي : بسبب .

(**أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ**) تقدم شرحها .

وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ) تقدم شرحها .

ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا) أي : بسبب ما ارتكبوا من المعاصي .

وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) أي : وبسبب اعتدائهم على الناس وظلمهم لهم .

الفوائد :

١- أن أهل الكتاب وخاصة اليهود من أذل الناس .

٢- أن أهل الكتاب قد ترتفع عنهم الذلة بحبل من الله أو بحبل من الناس .

٣- إثبات الغضب لله تعالى إثباتاً يليق بجلاله .

٤- أن الكفر بآيات الله سبب للعقوبات .

٥- عتو بني إسرائيل بالكفر وقتل الأنبياء والمعصية والعدوان .

٦- أن قتل الأنبياء موجب للعقوبة .

(**لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥)**) .

[آل عمران : ١١٣- ١١٥] .

(**لَيْسُوا سَوَاءً**) المشهور عن كثير من المفسرين –كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العَوْفِيّ عن ابن عباس–أن هذه الآيات نزلت فيمن آمَنَ من أحبار أهل الكتاب، كعبد الله بن سَلام وأسَد بن عُبَيْد وثعلبة بن سَعْية وأسَيد بن سعْية وغيرهم، أي: لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب [وهؤلاء الذين أسلموا، ولهذا قال تعالى (لَيْسُوا سَوَاءً) أي: ليسوا كلُّهم على حَدّ سواء، بل منهم المؤمن ومنهم المجْرم، ولهذا قال تعالى :

(**مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ**) **قال الآلوسي** : قوله تعالى (مّنْ أَهْلِ الكتاب أُمَّةٌ قَائِمَةٌ) استئناف مبين لكيفية عدم التساوي ومزيل لما فيه من الإبهام .

- **قال ابن عاشور** : قوله تعالى (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ..) استئناف قصد به إنصاف طائفة من أهل

الكتاب ، بعد الحكم على معظمهم بصيغة تعمّهم ، تأكيداً لِما أفاده قولُه (منهم المؤمنون وأكثرُهم الفاسقون) فالضمير في قوله (ليسوا) لأهل الكتاب المتحدّث عنهم آنفاً ، وهم اليهود ، وهذه الجملة تتنزّل من التي بعدها منزلة التمهيد.

- قوله تعالى (أمة قائمة) وقيل : أنها قائمة في الصلاة يتلون آيات الله آناء الليل فعبّر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل وهو كقوله (وَالَّذِينَ يِبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وقياما) وقوله (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدنى مِن ثُلُثَي الليل) .

وقوله (قُمِ الليل) وقوله (وَقُومُواْ لِلَّهِ قانتين) والذي يدل على أن المراد من هذا القيام في الصلاة قوله (وَهُمْ يَسْجُدُونَ) والظاهر أن السجدة لا تكون إلا في الصلاة.

وقيل : في تفسير كونها قائمة : أنها ثابتة على التمسك بالدين الحق ملازمة له غير مضطربة في التمسك به كقوله (إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا) أي ملازماً للاقتضاء ثابتاً على المطالبة مستقصياً فيها ، ومنه قوله تعالى : (قَائِمَاً بالقسط) .

- **قال ابن كثير** : أي: قائمة بأمر الله، مطيعة لشَرْعه مُتَّبِعة نبيَّ الله، فهي (قَائِمَةٌ) يعني مستقيمة .

(**يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ**) أي: يقومون الليل، ويكثرون التهجد، ويتلون القرآن في صلواتهم .

(وهم يسجدون) المراد بذلك الصلاة .

(**يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**) ومن ذلك الإيمان بمحمد ﷺ .

(**وَالْيَوْمِ الْآخِرِ**) وهو كل ما يكون بعد الموت .

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ) يأمرون بكل خير .

(**وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**) وينهون عن كل شر .

(**وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**) المسارعة في الخيرات تقتضي فعلها وتكميلها والإتيان بها على أكمل وجه .

- فينبغي للمسلم أن يبادر للخيرات والأعمال الصالحات الواجبات والمستحبات . (وسيأتي ما يتعلق بالمسارعة للخيرات قريباً إن شاء الله)

(**وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ**) الصالح : من أدى حق الله وحق عباده .

- **قال الرازي** : واعلم أن الوصف بذلك غاية المدح ويدل عليه القرآن والمعقول ، أما القرآن ، فهو أن الله تعالى مدح بهذا الوصف أكابر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال : بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكفل وغيرهم (وأدخلناهم فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مّنَ الصالحين) وذكر حكاية عن سليمان عليه السلام أنه قال (وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصالحين) وقال (فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مولاه وَجِبْرِيلُ وصالح الْمُؤْمِنِينَ) وأما المعقول فهو أن الصلاح ضد الفساد ، وكل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد ، سواء كان ذلك في العقائد ، أو في الأعمال ، فإذا كان كل ما حصل من باب ما ينبغي أن يكون ، فقد حصل الصلاح ، فكان الصلاح دالاً على أكمل الدرجات.

(**وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ**) أي: لا يضيع عند الله بل يجزيكم به أوفر الجزاء .

(**وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ**) أي: لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملاً.

الفوائد :

١- أن أهل الكتاب ليسوا سواء ، منهم أمة ضالة ومنهم أمة قائمة بأمر الله .

٢-بيان عدل الله تعالى .

٣-الثناء على القيام بطاعة الله والثبات عليها .

٤- الثناء على من يتلون كتاب الله تلاوة وعملاً .

٥-فضيلة السجود .

٦- فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

٧- الحث على المسارعة على الخيرات .

٨- فضل الصلاح .

٩- على المسلم أن يعرف الصفات التي يكون فيها الإنسان صالحاً ليطبقها .

١٠- أن من عملاً خيراً أثيب عليها كاملاً .

١١- بيان عدل الله .

١٢- الحث على العمل الصالح .

١٣-إثبات علم الله تعالى .

١٤- الثناء على أهل التقوى .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللّهِ شَيْئًا وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦)) .
[آل عمران : ١١٦] .

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**) أي: بآيات الله وكذبوا رسله، وخالفوا كتابه، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه .

● الكفر لغة الستر والتغطية ، ويسمى الليل (كافراً) لأنه يغطي كل شيء ، وكل شيء غطى شيء فقد كفره ، والكافر الزارع لأنه يغطي البذر بالتراب، **وشرعاً**: ضد الإيمان، فهو عدم الإيمان بالله ورسله، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب.

(**لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ**) أي : لن تدفع عنه .

(**أَمْوَالُهُمْ**) ولو كثرت .

(**وَلا أَوْلادُهُمْ**) ولو كثروا لينتصروا بهم .

(**مِنَ اللَّهِ شَيْئاً**) أي : من عذاب الله وعقابه شيئاً إذا نزل .

قال تعالى (وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ) .

وقال تعالى (ما أغنى عني ماليه) .

وقال تعالى (لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) .

وقال تعالى (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الخيرات بَل لاَّ يَشْعُرُونَ) .

وقال تعالى (وَمَآ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بالتي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زلفى) .

وقال تعالى (وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين كَفرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ ليزدادوا إِثْمَاً وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ) .

وهم قد ادعوا ذلك لأنفسهم كما قال تعالى عنهم (وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) وقوله (أَفَرَأَيْتَ الذي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً) . يعني في الآخرة كما أوتيته في الدنيا .

وقوله (وَلَئِن رُّجِّعْتُ إلى ربي إِنَّ لِي عِندَهُ للحسنى) أي : بدليل ما أعطاني في الدنيا .

● **قال ابن عاشور** : وإنّما خصّ الأموال والأولاد من بين أعلاق الذين كفروا ؛ لأنّ الغناءَ يكون بالفداء بالمال ، كدفع الديات والغرامات، ويكون بالنصر والقتال، وأوْلى مَن يدافع عن الرجل ، من عشيرته، أبناؤه ، وعن القبيلة أبناؤُها.

● **وقال ابن عطية** : وخص الله تعالى الأموال والأولاد بالذكر لوجوه :

منها : أنها زينة الحياة الدنيا ، وعظم ما تجري إليه الآمال .

ومنها : أنها ألصق النصرة بالإنسان وأيسرها .

ومنها : أن الكفار يفخرون بالآخرة لا همة لهم إلا فيها هي عندهم غاية المرء وبها كانوا يفخرون على المؤمنين، فذكر الله أن هذين اللذين هما بهذه الأوصاف لا غناء فيهما من عقاب الله في الآخرة، فإذا لم تغن هذه فغيرها من الأمور البعيدة أحرى أن لا يغني .

- ويوم القيامة لا ينفع إلا العمل الصالح .

قال تعالى (يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) .

وقوله (واتقوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا) الآية .

وقوله (فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مّلْءِ الأرض ذَهَبًا وَلَوِ افتدى بِهِ) .

وقوله (وَمَا أموالكم وَلاَ أولادكم بالتي تُقَرّبُكُمْ عِندَنَا زلفى) .

(**وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ**) الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه ، والغريم لغريمه ، لأن الأصل في الصحبة طول الملازمة .

- **قال البغوي** : قوله تعالى (وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) وإنما جعلهم من أصحابها لأنهم أهلها لا يخرجون منها ولا يفارقونها ، كصاحب الرجل لا يفارقه.

- والنار هي الدار التي أعدها الله للكافرين .

قوله تعالى (أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ) وهذا الأسلوب يطلق على الذين يخلدون فيها ، فالمؤمن العاصي – وإن كان يستحق العذاب بالنار – فإنه لا يسمى من أصحاب النار ، لأن الأصل في الصحبة طول الملازمة .

- كل ما ورد (أصحاب النار) فالمراد أهلها الكفار الذين لا يخرجون منها إلا في هذا الموضع (أصحاب النار) أي : الملائكة الخزنة .

(**هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**) لا يخرجون منها ، ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون .

وقد ذكر الله تأبيده في ثلاث آيات من القرآن الكريم :

- **في سورة النساء** : قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً) .
- **وفي سورة الأحزاب** : قال تعالى (خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً) .
- **وفي سورة الجن** : قال تعالى (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً) .

وقال تعالى (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُون) .

وقال تعالى (يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ) .

- **قال الرازي** :اعلم أنه سبحانه وتعالى ما ذكر في القرآن آية في الوعيد إلا وذكر بجنبها آية في الوعد ، وذلك لفوائد :

أحدها : ليظهر بذلك عدله سبحانه ، لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرين على الكفر وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرين على الإيمان .

وثانيها : أن المؤمن لا بد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه .

وثالثها : أنه يظهر بوعده كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته فيصير ذلك سبباً للعرفان.

الفوائد :

١- أن المال والأولاد لن تغني وتدفع عن الكفار عذاب الله .

٢- تمام قدرة الله وسلطانه على عباده .
٣- خطر فتنة الأموال والأولاد .
٤- أن الكفار في النار .
٥- أنهم مخلدون فيها .
٦- إثبات النار .

(**مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧)**) .

[آل عمران:١١٧] .

(**مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**) أي : الكفار .

هذا مثل ضربه لما ينفقه الكفار في هذا الدار .

● **قال الرازي** : اعلم أنه تعالى لما بيّن أن أموال الكفار لا تغني عنهم شيئاً ، ثم إنهم ربما أنفقوا أموالهم في وجوه الخيرات ، فيخطر ببال الإنسان أنهم ينتفعون بذلك ، فأزال الله تعالى بهذه الآية تلك الشبهة ، وبيّن أنهم لا ينتفعون بتلك الإنفاقات ، وإن كانوا قد قصدوا بها وجه الله.

(**كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ**) قيل : برد شديد .

● **قال الرازي** : قال أكثر المفسرين وأهل اللغة : الصر البرد الشديد وهو قول ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد .

والثاني : أن الصر: هو السموم الحارة والنار التي تغلي ، وهو اختيار أبي بكر الأصم وأبي بكر ابن الأنباري.

قال ابن الأنباري : وإنما وصفت النار بأنها (فِيهَا صِرٌّ) لتصويتها عند الالتهاب ، ومنه صرير الباب ، والصرصر مشهور ، والصرة الصيحة ومنه قوله تعالى (فَأَقْبَلَتِ امرأته فِي صَرَّةٍ) وروى ابن الأنباري بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما في (فِيهَا صِرٌّ) قال فيها نار ، وعلى القولين فالمقصود من التشبيه حاصل ، لأنه سواء كان برداً مهلكاً أو حراً محرقاً فإنه يصير مبطلاً للحرث والزرع فيصح التشبيه به.

(**أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ**) أي : أصابت تلك الريح المدمرة زرع قوم ظلموا أنفسهم بالمعاصي فأفسدته وأهلكته فلم ينتفعوا به ، فكذلك الكفار يمحق الله أعمالهم الصالحة كما يذهب هذا الزرع بذنوب صاحبه .

● والمعنى أنّ الله لم يظلمهم حين لم يتقبل نفقاتهم بل هم تسبّبوا في ذلك ، إذ لم يؤمنوا لأن الإيمان جعله الله شرطاً في قبول الأعمال ، فلما أعلمهم بذلك وأنذرهم لم يكن عقابه بعد ذلك ظلماً لهم ، وفيه إيذان بأنّ الله لا يخالف وعده من نفي الظلم عن نفسه.

● **قال ابن عاشور** : ضَرَبَ لأعمالهم المتعلّقة بالأموال مثلاً ، فشبّه هيئة إنفاقهم المعجب ظاهرُها ، المخيّبِ آخِرُها ، حين يحبطها الكفر ، بهيئة زرع أصابته ريح باردة فأهلكته ، تشبيه المعقول بالمحسوس.

ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) .

وقال رحمه الله : والسامعون عالمون بأن عقاب الأقوام الذين ظلموا أنفسهم غاية في الشدّة ، فذكر وصفهم بظلم أنفسهم لتذكير السامعين بذلك على سبيل الموعظة .

● **وقال الطبري في معنى الآية** : شَبَهُ ما ينفق الذين كفروا ، أي : شَبَهُ ما يتصدق به الكافر من ماله ، فيعطيه من يعطيه على

وجه القُربة إلى ربّه وهو لوحدانية الله جاحد ، ولمحمد ﷺ مكذب ، في أن ذلك غير نافعه مع كفره ، وأنه مضمحلّ عند حاجته إليه ، ذاهبٌ بعد الذي كان يرجو من عائدة نفعه عليه كشبه ريح فيها برد شديد ، أصابت هذه الريح التي فيها البرد الشديد "حرثَ قوم" ، يعني : زرع قوم قد أمّلوا إدراكه ، ورجَوْا رَيْعه وعائدة نفعه "ظلموا أنفسهم" ، يعني : أصحاب الزرع ، عصوا الله ، وتعدَّوا حدوده "فأهلكته" ، يعني : فأهلكت الريح التي فيها الصرُّ زرعهم ذلك ، بعد الذي كانوا عليه من الأمل ورجاء عائدة نفعه عليهم.

يقول تعالى ذكره : فكذلك فعل الله بنفقة الكافر وصدقته في حياته ، حين يلقاه ، يبطل ثوابها ويخيب رجاؤه منها.

الفوائد :

١- أن الكافر لا يستفيد من أعماله يوم القيامة .

كما قال تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً) .

وقال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ) .

وقال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) .

وقال تعالى عن يوم القيامة (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) .

٢- أن من شروط قبول العمل الإيمان .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)) .

[آل عمران : ١١٨ – ١٢٠] .

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ**) أي : لا تتخذوا المنافقين أصدقاء تودونهم وتطلعونهم على أسراركم وتجعلونهم أولياء من غير المؤمنين .

- **قال ابن كثير** : بطانة الرجل : هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخِلة أمره .
- **قال القرطبي** : نهى الله عزّ وجلّ المؤمنين بهذه الآية أن يَتَّخِذوا من الكفار واليهود وأهل الأهْوَاء دُخلاءَ ووُلَجاء ، يفاوضونهم في الآراء ، ويسندون إليهم أمورهم.

ويُقال : كل من كان على خلاف مَذْهَبك ودينك فلا ينبغي لك أن تحادثه ؛ قال الشاعر :

عن الْمَرءِ لاَ تَسْأَلْ وَسَلْ عن قَرِينهِ . . .فَكلُّ قَرِينٍ بالمقارن يَقْتَدِي

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال (المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) .

وروي عن ابن مسعود أنه قال : اعتبروا الناس بإخوانهم .

ثم قال القرطبي – رحمه الله : قلت وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء ، وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء. روى البخاري عن أبى سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال (ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه. وبطانة تأمره بالشر وتحثه عليه ، والمعصوم من عصمه الله) .

- **قال الرازي** : اختلفوا في أن الذين نهى الله المؤمنين عن مخالطتهم من هم ؟ على أقوال :

الأول : أنهم هم اليهود وذلك لأن المسلمين كانوا يشاورونهم في أمورهم ويؤانسونهم لما كان بينهم من الرضاع والحلف ظناً منهم أنهم وإن خالفوهم في الدين فهم ينصحون لهم في أسباب المعاش فنهاهم الله تعالى بهذه الآية عنه ، وحجة أصحاب هذا القول أن هذه الآيات من أولها إلى آخرها مخاطبة مع اليهود فتكون هذه الآية أيضاً كذلك

الثاني : أنهم هم المنافقون ، وذلك لأن المؤمنين كانوا يغترون بظاهر أقوال المنافقين ويظنون أنهم صادقون

الثالث : المراد به جميع أصناف الكفار ، والدليل عليه قوله تعالى (بِطَانَةً مّن دُونِكُمْ) فمنع المؤمنين أن يتخذوا بطانة من غير المؤمنين فيكون ذلك نهياً عن جميع الكفار وقال تعالى (يا أيها الذين ءامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء) ومما يؤكد ذلك ما روي أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : ههنا رجل من أهل الحيرة نصراني لا يعرف أقوى حفظاً ولا أحسن خطاً منه ، فإن رأيت أن تتخذه كاتباً ، فامتنع عمر من ذلك وقال : إذن اتخذت بطانة من غير المؤمنين ، فقد جعل عمر رضي الله عنه هذه الآية دليلاً على النهي عن اتخاذ بطانة ، وأما ما تمسكوا به من أن ما بعد الآية مختص بالمنافقين فهذا لا يمنع عموم أول الآية ، فإنه ثبت في أصول الفقه أن أول الآية إذا كان عاماً وآخرها إذا كان خاصاً لم يكن خصوص آخر الآية مانعاً من عموم .

- وصدر – سبحانه – النداء بوصف الإيمان ، للإشعار بأن مقتضى الإيمان يوجب عليهم ألا يأمنوا من يخالفهم في عقيدتهم على أسرارهم ، وألا يتخذوا أعداء الله وأعداءهم أولياء يلقون إليهم بالمودة ، وألا يطلعوهم على ما يجب إخفاؤه من شئون وأمور خاصة بالمؤمنين .

(**لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً**) أي: لا يقصرون لكم في الفساد ، قال تعالى (لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً) أي فساداً وضرراً.

- **قال القرطبي** : ومعنى (لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً) لا يقصِّرون فيما فيه الفسادُ عليكم.

- **قال القرطبي** : بيّن تعالى المعنى الذي لأجله نهى عن المواصلة فقال : (لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً) يقول فساداً.

يعني لا يتركون الجهد في فسادكم ، يعني أنهم وإن لم يقاتلوكم في الظاهر فإنهم لا يتركون الجهد في المكر والخديعة ، على ما يأتي بيانه.

(**وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ**) أي : تمنوا مشقتكم وما يوقعكم في الضرر الشديد .

أي : أن هؤلاء الذين تصافونهم وتفشون إليهم أسراركم مع أنهم ليسوا على ملتكم، بجانب أنهم لا يألون جهدا في إفساد أمركم، فإنهم يحبون عنتكم ومشقتكم وشدة ضرركم ، وتفريق جمعكم ، وذهاب قوتكم.

(**قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ**) أي : قد ظهرت أمارات العداوة لكم على ألسنتهم .

- **قال ابن كثير** : أي: قد لاح على صَفَحات وجوههم، وفلتات ألسنتهم من العداوة، مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله، ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل .

- **وقال القرطبي** :قوله تعالى (قَدْ بَدَتِ البغضآء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ) يعني ظهرت العداوة والتكذيب لكم من أفواههم.

والبغضاء : البغض ، وهو ضدّ الحُبِّ.

وخصّ تعالى الأفواه بالذِّكر دون الألسنة إشارةً إلى تَشدُّقهم وتَرْثَرتهم في أقوالهم هذه ، فهم فوق المتستر الذي تبدو البغضاء في عينيه.

- **قال الآلوسي** : قوله تعالى (قَدْ بَدَتِ البغضاءِ مِنْ أفواههم) أي ظهرت أمارات العداوة لكم من فلتات ألسنتهم وفحوى كلماتهم لأنهم لشدة بغضهم لكم لا يملكون أنفسهم ولا يقدرون أن يحفظوا ألسنتهم ، وقال قتادة : ظهور ذلك فيما بينهم حيث أبدى كل منهم ما يدل على بغضه للمسلمين لأخيه ، وفيه بعد إذ لا يناسبه ما بعده. .

- **وقال الرازي** : قوله (قَدْ بَدَتِ البغضاءِ مِنْ أفواههم) إن حملناه على المنافقين ففي تفسيره وجهان :

الأول : أنه لا بد في المنافق من أن يجري في كلامه ما يدل على نفاقه ومفارقته لطريق المخالصة في الود والنصيحة ، ونظيره قوله تعالى (وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول) .

- وقد قيل : كوامن النفوس تظهر على صفحات الوجوه وفلتات اللسان .

(**وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ**) أي : وما يبطنونه لكم من البغضاء أكثر مما يظهرونه .

- **قال الفخر** : يعني الذي يظهر على لسان المنافق من علامات البغضاء أقل مما في قلبه من النفرة ، والذي يظهر من علامات الحقد على لسانه أقل مما في قلبه من الحقد. أ

(**قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ**) أي : وقد وضحنا لكم الآيات الدالة على وجوب الإخلاص في الدين وموالاة ومعاداة المنافقين .

إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) أي : إن كنتم تعقلون عن الله أمره ونهيه .

- ثم ذكر في هذه الآية أموراً ثلاثة ، كل واحد منها على أن المؤمن لا يجوز أن يتخذ غير المؤمن بطانة لنفسه فالأول

(**هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ**) أي: أنتم –أيها المؤمنون–تحبون المنافقين مما يظهرون لكم من الإيمان، فتحبونهم على ذلك وهم لا يحبونكم، لا باطنا ولا ظاهراً .

وقيل : تحبون لهم الإسلام وهم يحبون أن تبقوا على الكفر .

وقيل : (تُحِبُّونَهُمْ) بسبب ما بينكم وبينهم من الرضاعة والمصاهرة، وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ بسبب كونكم مسلمين.

وقيل : (تُحِبُّونَهُمْ) بسبب أنهم أظهروا لكم الإيمان (وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ) بسبب أن الكفر مستقر في باطنهم .

وقيل : (تُحِبُّونَهُمْ) بمعنى أنكم لا تريدون إلقاءهم في الآفات والمحن (وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ) بمعنى أنهم يريدون إلقاءكم في الآفات والمحن ويتربصون بكم الدوائر .

واعلم أن هذه الوجوه التي ذكرناها إشارة إلى الأسباب الموجبة لكون المؤمنين يحبونهم ولكونهم يبغضون المؤمنين ، فالكل داخل تحت الآية ، ولما عرفهم تعالى كونهم مبغضين للمؤمنين وعرفهم أنهم مبطلون في ذلك البغض صار ذلك داعياً من حيث الطبع ، ومن حيث الشرع إلى أن يصير المؤمنون مبغضين لهؤلاء المنافقين.

(**وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ**) أي: ليس عندكم في شيء منه شك ولا رَيْب، وهم عندهم الشك والرِّيَب والحِيرة.

- **قال الرازي** : في الآية إضمار ، والتقدير : وتؤمنون بالكتاب كله وهم لا يؤمنون به ، وحسن الحذف لما بينا أن الضدين يعلمان معاً فكان ذكر أحدهما مغنياً عن ذكر الآخر.

- **قال القرطبي** : والكتاب اسم جنس ؛ قال ابن عباس : يعنى بالكُتُب.

واليهود يؤمنون بالبعض ؛ كما قال تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرونَ بِمَا وَرَآءَهُ) .

(**وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا**) وهذا شأن المنافقين يُظْهِرون للمؤمنين الإيمانَ والمودّة، وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه .

(**وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ**) الأنامل أطراف الأصابع .، وذلك أشد الغيظ والحنق .

- **قال ابن عاشور** : وعضّ الأنامل كناية عن شدّة الغيظ والتحسّر ، والغيظ : غضب شديد يلازمه إرادة الانتقام.

والمعنى : أنه إذا خلا بعضهم ببعض أظهروا شدة العداوة ، وشدة الغيظ على المؤمنين حتى تبلغ تلك الشدة إلى عض الأنامل ،

كما يفعل ذلك أحدنا إذا اشتد غيظه وعظم حزنه على فوات مطلوبه ، ولما كثر هذا الفعل من الغضبان ، صار ذلك كناية عن الغضب حتى يقال في الغضبان : إنه يعض يده غيظاً وإن لم يكن هناك عض ، قال المفسرون : وإنما حصل لهم هذا الغيظ الشديد لما رأوا من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم.

(**قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ**) أ ي: مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم، فاعلموا أن الله مُتمّ نعمته على عباده المؤمنين ومُكَملٌ دينه، ومُعْلٍ كلمتَه ومظهر دينَه، فموتوا أنتم بغيظكم .

- **قال الرازي** : وهو دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به ، والمراد من ازدياد الغيظ ازدياد ما يوجب لهم ذلك الغيظ من قوة الإسلام وعزة أهله وما لهم في ذلك من الذل والخزي .

- **وقال ابن عاشور** : قوله تعالى (قل موتوا بغيظكم) كلام لم يقصد به مخاطبون معيَّنون لأنَّه دعاء على الَّذين يعضّون الأنامل من الغيظ ، وهم يفعلون ذلك إذا خلوا ، فلا يتصوّر مشافهتهم بالدّعاء على التّعيين ولكنَّه كلام قصد إسماعه لكلّ من يعلم من نفسه الاتّصاف بالغيظ على المسلمين وهو قريب من الخطاب الَّذي يقصد به عموم كُل مخاطب نحو (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم) .

والدعاء عليهم بالموت بالغيظ صريحهُ طلب موتهم بسبب غيظهم ، وهو كناية عن ملازمة الغيظ لهم طول حياتهم إن طالت أو قصرت ، وذلك كناية عن دوام سبب غيظهم ، وهو حسن حال المسلمين ، وانتظام أمرهم ، وازدياد خيرهم ، وفي هذا الدعاء عليهم بلزوم ألم الغيظ لهم ، وبتعجيل موتهم به ، وكلّ من المعنيين المكني بهما مراد هنا ، والتكنّي بالغيظ وبالحسد عن كمال المغيظ منه المحسود مشهور ، والعرب تقول : فلان محسَّد ، أي هو في حالة نعمة وكمال.

- **قال القرطبي** : إن قيل : كيف لم يموتوا والله تعالى إذا قال لشيء : كن فيكون.

قيل عنه جوابان :

أحدهما : قال فيه الطبريّ وكثير من المفسرين : هو دعاء عليهم ، أي قل يا محمد أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا.

فعلى هذا يتجه أن يدعو عليهم بهذا مُوَاجهةً وغيرَ مواجهة بخلاف اللّعْنَة.

الثاني : أن المعنى أخبرهم أنهم لا يدركون ما يؤملون ، فإن الموت دون ذلك ، فعلى هذا المعنى زال معنى الدعاء وبقي معنى التقْرِيع والإغَاظَة.

(**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**) أي: هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم، وتُكنُّه سَرَائرُكم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تؤمّلون، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها، فلا خروج لكم منها.

(**إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا**) وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب، ونصر وتأييد، وكثروا وعزّ أنصارهم، ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سَنَة -أي: جَدْب-أو أُديل عليهم الأعداء، لما لله في ذلك من الحكمة، كما جرى يوم أُحُد، فَرح المنافقون بذلك .

- **قال ابن عطية** : ذكر الله تعالى المس في الحسنة ليبين أن بأدنى طروء الحسنة تقع المساءة بنفوس هؤلاء المبغضين ، ثم عادل ذلك في السيئة بلفظ الإصابة ، وهي عبارة عن التمكن.

لأن الشيء المصيب لشيء هو متمكن منه ، أو فيه ، فدل هذا النوع البليغ على شدة العداوة ، إذ هو حقد لا يذهب عند نزول الشدائد ، بل يفرحون بنزول الشدائد بالمؤمنين.

- **قال في التفسير الوسيط** : فالجملة الكريمة بيان لفرط عداوة هؤلاء المنافقين للمؤمنين ، حيث يحسدونهم على ما ينالهم من

خير ، ويشمتون بهم عند ما ينزل بهم شر.

وعبر في جانب الحسنة بالمس ، وفي جانب السيئة بالإصابة ، للإشارة إلى تمكن الأحقاد من قلوبهم ، بحيث إن أي حسنة حتى ولو كان مسها للمؤمنين خفيفا وليس غامرا عاما فإن هؤلاء المنافقين يحزنون لذلك ، لأنهم يستكثرون كل خير للمؤمنين حتى ولو كان هذا الخير ضئيلاً .

- وقيل : والتعبير هنا بالمسّ مع الحسنة وبالإصابة مع السيئة لمجرد التفنن في التعبير، وقد سوى بينهما في غير هذا الموضع كقوله تعالى (إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ) وقوله سبحانه (إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً) .

- **قال القرطبي** : والمعنى في الآية : أن من كانت هذه صفته من شدّة العداوة والحِقد والفرح بنزول الشدائد على المؤمنين ، لم يكن أهلاً لأن يتخذ بطانة ، لا سِيما في هذا الأمر الجسيم من الجهاد الذي هو مِلاك الدنيا والآخرة ؛ ولقد أحسن القائل في قوله :

كلّ العداوةِ قد تُرجَى إفاقتُها . . .إلاّ عداوة مَن عاداك مِنْ حسدِ .

- قال الله تعالى مخاطبا عباده المؤمنين :

(**وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً**) يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وَكَيْدِ الفُجّار، باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه.

- **قال ابن عاشور** : أرشد الله المؤمنين إلى كيفية تلقّي أذى العدوّ : بأن يتلقّوه بالصّبر والحذر ، وعبّر عن الحذر بالاتّقاء أي اتّقاء كيدهم وخداعهم ، وقوله (لا يَضِركم كيدهم شيئاً) أي بذلك ينتفي الضرّ كلّه لأنّه أثبت في أوّل الآيات أنّهم لا يضرّون المؤمنين إلاّ أذى ، فالأذى ضرّ خفيف ، فلمّا انتفى الضرّ الأعظم الَّذي يحتاج في دفعه إلى شديدِ مقاومة من القتال وحراسة وإنفاق ، كان انتفاء ما بَقي من الضرّ هيّناً ، وذلك بالصّبر على الأذى ، وقلّة الاكتراث به ، مع الحذر منهم أن يتوسّلوا بذلك الأذى إلى ما يوصل ضرّاً عظيماً ، وفي الحديث (لا أحد أصبر على أذى يسمعه من اللهِ يدعون له نِدّاً وهو يرزقهم) .

- **وقال النسفي** : وهذا تعليم من الله وإرشاد إلى أن يستعان على كيد العدو بالصبر والتقوى.

وقال الحكماء : إذا أردت أن تكبت من يحسدك فازدد فضلاً في نفسك .

(**إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**) تهديد للكافرين .

- **قال الطبري** : إن الله بما يعمل هؤلاء الكفار في عباده وبلاده من الفساد والصدّ عن سبيله ، والعداوة لأهل دينه ، وغير ذلك من معاصي الله "محيط" بجميعه ، حافظ له ، لا يعزب عنه شيء منه ، حتى يوفيهم جزاءهم على ذلك كله ، ويذيقهم عقوبته عليه.

الفوائد :

١- تحريم اتخاذ البطانة التي ليست منا .

٢- أن تجنب البطانة السيئة من مقتضيات الإيمان .

٣- أن أعداءنا يودون لنا ما يشق علينا .

٤- بغض الكفار للمؤمنين .

٥- أن ما في قلوب الأعداء من العداوة والبغضاء أكثر مما يبدو .

٦- بيان علم الله بما في القلوب .

٧- وجوب الإيمان بجميع الكتب .

٨- أن العبرة بالأفعال لا بالأقوال .

٩- قوة المسلم أمام الأعداء .

١٠- إثبات علم الله لما في القلوب .

١١- بيان شدة عداوة الكفار للمؤمنين ، لأنهم يسؤهم فرحك ، ويفرحهم هزيمتك .